مهما يكن من أمر ، فالكتاب ثمرة من ثمار « القلق الاجتماعى » وفى أحضانه ترقد أزمة المثقف وتفرخ •

٦ ــ فكرة النقد الاجتماعى والشكل الأدبى :

معطيات تراثية :

المشكلات التى واجهت « المويلحى » هى كيف يقدم عطاءه الفنى ؟ لقد كان أمامه النموذج الأدبى الذى قام به « على مبارك » فى كتاب « علم الدين » • وهو أثر أدبى استلهم المقامة • واتخذ قالب رحلة يقوم بها الشيخ علم الدين مع مستشرق أنجليزى ، طافا معا بجوانب الحياة المصرية ثم رحلا الى بلاد الانجليز • وقد صور « على مبارك » مشاهداتهما ، ورصد من خلال مشاهد روائية ما طرأ على مصر من تغيير استتبع ضرورة غرس قيم جديدة فى التربة المصرية • ومن هنا كان هدفه تعليميا مباشرا •

وقد استفاد المويلحى من هذا العمل الأدبى من حيث طرح القضية الحضارية التى يمور بها المجتمع المصرى ، ولكن مع تغيير فى المهمة التى يصور بها فكرة التغيير الاجتماعى ، وهى جوهر النقد الاجتماعى فى الكتاب • و « على مبارك » فى « علم الدين » كان يستجيب لحاجة مجتمعه ــ مع مراعاة أنها كتبت قبل الاحتلال الانجليزى لمصر ــ ولم تكن المشكلات الاجتماعية الناجمة عن الوجه الكئيب ــ الاحتلال ــ من الاحتكاك بين الشرق والغرب ، قد أطلت برأسها على الواقع الاجتماعى • وكانت الرغبة فى نقل مظاهر الحضارة الغربية هى المطلب الرئيسى لـ « على مبارك » و « الطهطاوى » وغيرهما من رواد الفكر العربى الحديث •

أما عصر المويلحى فكان عصر الاحتلال الانجليزى • وكان الرجل فى طليعة المثقفين المصريين الذين قاوموا الاحتلال ابان الثورة العرابية ، وعانى مرارة فشلها • وظلت الروح الثائرة متأججة فى وجدانه • ووجد ــ كبور جوازى أصيل ــ أن لا جدوى من العنف الثورى ، وأن التدرج فى الاصلاح هو المهاد الطبيعى لتحقيق الأهداف النبيلة للثورة •

من هنا وجد أنه ينبغى عليه أن ينقل ميدان المعركة ، من المواجهة المباشرة للمستعمر ، الى المواجهة المباشرة مع « الذات القومية » • ساعده على ذلك قدرة على مراجعة الذات • ولم يفعل مثل كثير من المثقفين المصريين الذين كسروا أقلامهم وسلاحهم واستسلموا لوطأة الاحتلال استسلاما مهادنا قدريا • والاكتفاء بتعليق ما حل بنا من تخلف على الاحتلال وحده ، وكأننا غير مسئولين عن الجريمة • والاتكاء على سياسة « اللامبالاة » بكل ما فيها من تنصل من المسئولية ، ومن المبادىء اذا حزب الأمر • واذا كان الاستعمار قد خرب مصر سياسيا واقتصاديا واجتماعيا • فنحن ــ فيما يرى ــ قد خربنا بيوتنا وديارنا بأيدينا •

لذا ، فقد وجد « المويلحى » فى نفسه الشجاعة ــ وفى لحظة صدق ــ لمواجهة « الذات » و « الآخر » وهو هنا « المجتمع » •

أراد أن يدخل القصة بمفهومها الغربى فى الأدب العربى الحديث • لكن كيف ؟ ! هل يدخلها بشكلها الغربى أو يبحث عن شكل عربى ليقدمها فيه ؟ لكنه ، بطبيعة تكوينه محافظ ، وقدر أيناه يأخذ على « شوقى » فى محاولة التجديد على أسس النماذج الغربية • (٢) لذلك ، فانسجاما مع طبيعته المحافظة وارضاء لذوق معاصريه قدم رؤيته الفنية فى شكل قصصى قائم على الشكل الأدبى الموروث « المقامة» حتى لا يخرج على ذوقه وعلى ذوق أمثاله من المحافظين الأصلاء الذين يأبون محاكاة النماذج الأدبية الغربية (١) •

استفاد « المويلحى » من الشكل القديم « المقامة » وحرص على أن يطوره بحيث يستوعب القضايا التى تولدت عن « التغيير

---

(١) اقرأ نقد المويلحى لديوان شوقى تحت عنوان « امر مبكياتك لا مضحكاتك » فى « مصباح الشرق » الأعداد : ٢٧ ابريل ١٩٠٠ ، و٤ مايو ١٩٠٠ ، و ٨ مايو ١٩٠٠ .

(٢) د. شوقى ضيف ، الأدب العربى المعاصر فى مصر ، ص ٢٣٧ .

الاجتماعى » • واجتهد أن يكشف طاقاته الابداعية من خـلال استثمار الموروث • ومن المرجح أن يكون قد اطلع على نماذج من الأدب الروائى الأوروبى • (١) ولكنه ــ فيما يبدو ــ شعر أن هـذا الشـكل لا يعبر عن واقع البيئة المحلية • وكان يؤرق وجدانه ما فى مجتمعه من تخلف اجتماعى وتبعية سياسية واقتصادية •

وتراءت على الساحة الأدبية المعضلة التى كانت تمثل التحـدى : كيف يواجه الحضـارة الأوروبية الحديثة ويظل ، فى الوقت نفسه ، مرتبطا بالتراث ؟ •• والقضية لم تقتصر على مواجهة الموقف من البعد السياسى أو الثقافى فحسب ، بل امتد التحـدى الى التعبير الفنى • وعلى هذا ، فقد وجد نفسه منسجما مع الشـكل القـديم « المقامة » وحاول أن يتحرر من الوظيفة القديمة للمقامة بحيث يجعلها قادرة عـلى استيعاب مرحلة الاحياء التى يمر بها المجتمع •

ومعلوم أن الاعتزاز بالذات القومية وتمجيدها ، والاعتصـام بها سمة مصاحبة لكل صحوة قومية تعتمد على احياء التراث • ومن جانب آخر ، فان ازدهار فن من الفنون انما يكون ــ فى التحليـل الأخير ــ استجابة لحاجة اجتمـاعية •

وتتمثل المعطيات التراثية فى اسـتدعائه أو استعارته النمـاذج الأدبية والشخصيات التاريخية • وهو هنا يشبع حنينه الدفـين الى الجـذر •• التراث • ثم انه من جـانب آخـر ــ يحاول أن يحمـّل تلك لشخصيات مضمونا جديدا يصور من خلاله رؤيته النقدية للواقـع الاجتماعى • وما لحق به من تغير • وبهذا الحل السعيد اعتمد على الشكل القديم فى تقديم صورة جديدة • ومن القديم يولد الجديد •

بعث المويلحى الشخصيات التراثية من مرقدها لتحدد موقفهـا

---

(١) انظر : حديث عيسى بن هاشم ، ص ح من مقدمة على أدهم .

مما طرأ على البناء الاجتماعى لمصر من تغيير • ودفع بها ــ من خــلال مشاهد روائية ــ فى أتون التجربة البشرية لتنبىء عن موقفها من فكرة التغيير الاجتماعى • وكأنه يصور فنيا موقف القديم الآفل من الجــديد الواعد ، والعكس صحيح •

الشخصية الأولى التى اعتمد عليها « المويلحى » مؤكدا اعتماده على المعطى التراثى ، شخصية « عيسى بن هشــام » وهى شــخصية اختراعها « بديع الزمان الهمذانى (٣٥٨هـ ــ ٣٩٨هـ) ورأى المويلحى أن يتخذ لقصته هذا الاطار القديم ، فراوى قصته هو نفس راوى مقامات « بديع الزمان » ، ولذلك سماها « حديث عيسى بن هشام » * ولكن بطل « بديع الزمان » أديب متسول يسمى أبا الفتح الاسكندرى ، فهل يكون بطل « المويلحى » على نمطه أديبا متسولا ؟ لقد رأى أنه إن صنع ذلك لمن تتاح له الفرصة لكى يلم بما يريد من موضوعات اجتماعية • لذا اتخــذ بطله من جيل ســابق عليه • وهى شخصية لها وجود تاريخى بالفعل • شخصية الباشا « المنيكلى » •

والشخصية الثانيــة التى استدعاها من التــاريخ هى شخصية أحمد باشا المنيكلى • وكان من أشهر القواد المصريين • اشترك فى حرب سوريا مع ابراهيم باشا ، وتولى منصب ناظر الجهادية ١٨٦٢ م ، وقد أسند اليه قيادة الحملة البرية المصرية التى أرسلت فى عهد سعيد باشا لمســاعدة تركيا فى حرب القرم ١٨٥٣ ــ ١٨٥٦ [١] •

واعتمــد فى مادته الروائية على عنصر تراثى ، فاستلهم قصــة « أهل الكهف » التى وردت فى القرآن الكريم • ولــكنه لم يقف عنــد

(*) نشر « حديث عيسى بن هشام » منجما فى جريدة « مصباح الشرق » ابتداء من العدد ٣١ الموافق الخميس ٣ رجب ١٣١٦ ، ١٧ نوفمبر ١٨٩٨ تحت عنوان « فترة من الزمن » .

(١) انظر : عبد الرحمن الرافعى ، عصر اسماعيل ، الجزء الأول ، ط . الثانية ١٩٤٨ .

المدلول الدينى من القصة القرآنية والذى يتكثف فى فكرة « البعث بعد الموت » والاجاءت قصته مجرد تحوير فنى فقط • لكنه استفاد من هذا الشكل المستمد من التراث الدينى ليتيح ــ ببعثه البطل من مرقده ــ سيولة زمنية يتحرك عبرها البطل فى الزمان والمكان ، ويطل على هــذه الـــ « فترة من الزمن » وما أصاب المجتمع فيها من تغيير • وليصور ــ على لسان بطله ــ موقفه النقــدى من المجتمــع وأحكامه على ما جرى من تغيير اجتماعى شمل الحياة والأحياء فى مصر •

على أنه كان ينظر الى كتاب المقامة بوصفهم « المثل الأعلى » الذى يرنو ببصره الى احيائه • و « المويلحى » فى التفاته الى المــاضى كان يطمــح فى احتــذاء شــوامخ كتاب المقامات • فاســتعار شــخصية « عيسى بن هشام » من « بديع الزمان » • واقتدى بصنيع « الحريرى » (٤٤٦ ــ ٥١٦ هـ) فى مقدمته لمقاماته • فصدر كتابه بكلمات شبيهة فى مضمونها بما سبق أن ذكره « الحريرى » فى مقدمته • يقول « المويلحى »: « فهذا الحديث ــ حديث عيسى بن هشام ــ وان كان فى نفسه موضوعا على نسق التخييل والتصوير ، فهو حقيقة متبرجة فى ثوب خيال ، لا أنه خيال مسبوك فى قالب حقيقة ، حاولنــا أن نشرح به أخــلاق العصر وأطوارهم ، وأن نصف ما عليه النــاس فى مختلف طبقاتهم من النقائص التى يتعين اجتنابها ، والفضائل التى يجب التزامها » (٢) •

وهذه المقدمة ــ على قصرها ــ تثير قضايا أساسية : مســئولية الكاتب أو الأديب ، وأمانة الكلمة ، وعلاقة الأديب بجمهوره وبالواقع • وسنرى أنه التفت الى أديب كبير هو « الحريرى » واقتدى برســالته الفنيةالتى طرحهاعلى نحو ما نرى • يقول «الحريرى» ! «••• ونستوهب منك توفيقا قائدا الى الرشــد وقلبا متقلبا مع الحق ، ولسانا متحليا بالصدق ، ونطقا مؤيدا بالحجة ، واصابة ذائدة عن الزيغ ، وعزيمة قاهرة هوى النفس ، وبصيرة ندرك بها عرفان القدر • وأن تسعدنا بالهداية الى

---

(٢) حديث عيسى بن هشام ، المقدمة ، ص ف .

الدراية ، وتَعْضُدنا بالأمانة على الابانة ، وتعصمنا من الغواية فى الرواية ، وتصرفنا عن السفاهة فى الفكاهة ... على أنى وان أغمض لى الفطِن المتغابى ... لا أكاد أخلص من غُمر جاهل ، أو ذى غِمر متجاهل ، يضع منى لهذا الوضع ، ويندد بأنه من مناهى الشرع .

ومن نقد الأشياء بعين المعقول ، وأنعم النظر فى مبانى الأصول . نظم هذه المقامات ، فى سلك الافادات .. فأى حرج على من أنشأ ملحا **للتنبيه ، لا للتمويه ، ونحابها منحى التهذيب ، لا الأكاذيب ! وهل هو فى** ذلك الا بمنزلة من انتدب لتعليم ، أو هدى الى صراط مستقيم » (١) والتنبيه هنا ، هو النقد بالمعنى الواسع للكلمة .

ومقدمة « المويلحى » وان أشبهت مقدمة « الحريرى » الا أنها أكثر طموحا حينما تجعل « شرح أخلاق أهل العصر وأطوارهم ووصف ما عليه الناس فى مختلف طبقاتهم » وظيفة أساسية للعمل الفنى الروائى . وهو هنا يقترب من الوظيفة الاجتماعية للرواية من حيث انها تحليل للمجتمع ونقده ، وتصوير أزمة الانسان فى المجتمع .

أما المقامة القديمة « وان مزجت التسلية بالتعليم فانها لم تقصد الى الأحوال الاجتماعية بالوصف ولا الى الأخلاق بالشرح ، ولكن الأحوال والأخلاق كانت ترد فيها عرضا داخل اطار شديد التحديد قليل التنوع . أما المويلحى فقد كان عليه أن يتحرر من هذا الاطار بعض التحرر .. كان هذا التوجيه الاجتماعى سببا فى خروج المويلحى بالمقامة من قالب الملحة أو الفكاهة الى قالب « الرحلة » وهو ... من أولى القوالب الروائية التى تصلح لعرض الشخصيات ومناظر الحياة الاجتماعية » (٢) .

---

(١) شرح مقامات الحريرى ، للشريشى ، الجزء الأول ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، (القاهرة ، المؤسسة العربية الحديثة ، ١٩٦٩) ص ١٦ وما بعدها .

(٢) د. شكرى محمد عياد ، القصة القصيرة ، دراسة فى تأصيل فن ادبى ، (القاهرة ، معهد الدراسات العربية العالية ١٩٦٨/٦٧) ص ٦٩ .

تطورت وظيفة الشكل القصصى (المقامة) على يد « المويلحى » • فلم تعد تهدف الى التعليم ، وانما أصبحت تقوم على **نقد المجتمع** بتصوير أخلاق أهله وطباعهم • وهو بهذا يؤكد أن محورها هو «الانسان» أيا كان وضعه الطبقى أو الشريحة الاجتماعية التى ينتمى اليها ، وتتغلغل فى شتى طبقات المجتمع لتصل الى الغاية من تأليفها وهى « الاصلاح الاجتماعى » القائم على التدرج لا الثورة •

والرؤى المستقبلية للمجتمع الذى يحلم به « المويلحى » •• مجتمع يسوده **(العدل الأسمى)** لا يتم الوصول اليها الا من خلال رؤية فاحصة للواقع الاجتماعى • رؤية تهدف الى تغيير شامل وعميق للجوانب السلبية من الواقع القائم • وهى لتحقيق هذا المفهوم تستند الى تصورين :

التصور الأول : **يقوم على النقد • نقد عيوب الفرد والمجتمع •** فمهمة الرواية عند « المويلحى » هى **« النقد »** • وهو هنا يقر مبدأ نقديا أثاره من قبل « الحريرى » فى مقدمته حين دافع فى مقاماته ضد ما قد يعيبه عليه الجهلاء من الاشتغال بهذه الحكايات المخترعة [1] • والتنبيه الذى حدثنا عنه « الحريرى » هو ــ فى التحليل الأخير ــ النقد • النقد الاجتماعى بالمفهوم الواسع للكلمة •

فالنقد هو المهمة التى انتدب « المويلحى » نفسه للذود عنها ضد مفهوم كتاب رواية التسلية والترفيه الذى نحابهم مفهومهم نحو « التمويه » فقدموا روايات تخاطب غرائز الجمهور القارىء ، فتخدر مشاعره ولا تنبه حسه الا على كل ما هو هابط ، ولا تبصره بواقعه النفسى أو الاجتماعى ، وهم بذلك قد ابتعدوا عن وظيفة « التنبيه » •

وقد التفت النقاد المعاصرون للمويلحى الى هذا البعد الاجتماعى

---

(١) انظر : ص ١٤٠ من هذه الدراسة .

فى مفهم الرواية • فأشار ناقد مجلة « لهلال » فى تقريظه للكتاب بقوله : « هو كتاب اجتماعى على أسلوب الرواية فى قالب محاورة مروية على لسان « عيسى بن هشام »يتضمن انتقادات سياسية واجتماعية وتهذيبية عن أحوال مصر وبعض رجالها وادارتها وأحكامها وعادات أهلها وطرق أغنيائها مما ينبغى اجتنابه أو يجب اتباعه بعبارة رشيقة » (١) وعقب ناقد مجلة « المقتبس » بقوله : « ••• وقد وفى الكاتب بهذا الغـــرض من كل وجه فمثل حياة مصر الاجتماعية ولا سيما أهل السرف والترف من بينما وربما بالغ فى الأحايين فى ذلك للتأثير فى قلب القارىء » (٢) •

أما المقتطف فقد نشر ما جاء فى تقرير لجنة وزارة المعـــارف التى انتدبت لفحصـــه • قالت : « وقد ذهب مؤلف الكتاب مذهب القصص وأجرى الكلام فيه على جهة التخيل والتمثيل ، حتى اذا عرض لرذيلة من الرذائل الشائعة جلا مكانها ، وصور آلامها ، وتمثل المنغمسين فيها من أهل الغفلة والضلالة ، وراح يشرح عقلياتهم ، ويتتبع مزالقهم فيها حتى ينحط بهم الى قرارة الهاوية » (٣) •

أما التصور الثانى فيقوم على أن الروائى يستمد مادته من الواقع أو الحقيقة • ومادة الروائى هنا هى الفرد والمجتمع ، وهو بهذا المفهوم يكون قد غرس بذرة الواقعية فى القصة المصرية • وأكد ضرورة التزام الروائى بواقع مجتمعه • ويقرر مؤرخو الرواية المصرية ــ بحق ــ أن كتاب « المويلحى » قد بلور مهمة الروائى اذ يفترض أن يكون فيه شىء

---

(١) الهلال ، أول ابريل ١٩٠٧ ، ص ٤٤٨ ، وأيضا الهلال ، أول مارس ١٩٢٨ حيث أشاد « المحرر » بمهمة الكتاب وصاحبه « من حيث أنه لم يكتب كتابه مقامات منفصلة بل جعله ميدانا يعرض فيه لنقد الحياة المصرية » العدد المذكور ، ص ٧٩ .

(٢) المقتبس ، الجزء السادس ، المجلة السابع ، ١٩١٢ ، ص ٥٤٦ .

(٣) المقتطف ، أول مارس ١٩٢٨ ، ص ٣٤٦ .

وانظر تعليق المقتطف فى أول يوليو ١٩١٢ . والمقتطف ، مارس ١٩٠٧ ، ص ٢٤٨ .

من الباحث الاجتماعى ، ويتمتع بقوة ملاحظة تنفذ الى الجزئيات ، وبنظرة شمولية أو باصرة قوية ... نظرة بقدر ما تحدق فى « الواقع » فهى — ببصيرة — تحلق مستشرفة آفاقا رحبة لغد مشرق للفرد والمجتمع . نظرة تدرك العلاقات المتحكمة فى أنساق البناء الاجتماعى . فضلا عن روح الدعابة والسخرية التى لابد من توافرها فى كل عمل فنى عظيم . وقد توفر الكثير من ذلك فى الحديث ... فالواقعية المصرية الأصيلة تتسم باللمحة الناقدة ، والاحساس الدقيق بالمفارقات ... بتلك الدعابة التى لا تحاول أن تهتك المستور ، أو تفضح السر بجملة واحدة لاذعة ، ولكنها دعابة ذكية مهذبة ، تتناول الشىء من جوانبه المختلفة ، وهى تتظاهر بأنها لا ترى فيه غير السطح ، فاذا الحقيقة عارية ، واذا القارىء يفهمها وهو لا يحس أن أحدا قد تجشم عناء كشفها له » [١] .

٧ — فكرة النقد الاجتماعى واللغة فى « حديث عيسى بن هشام » :

لا ريب أن تاريخ الحضارة قصة تحكى دور اللغة فى السلوك الاجتماعى . فهى وسيلة لصبغ الفرد بالصبغة الاجتماعية ، وكلما ازداد توغلا فى عضويته للمجتمع اللغوى ، لعبت اللغة وظيفة أساسية ، لا فى حياته الاجتماعية فحسب ، بل فى سلوكه واحساسه ، وتفكيره الشخصى [٢] .

وعلماء اللغة يرون أنها تقوم بوظيفتين : تعاملية ، وتنفيسية أو هامشية . والوظيفة التعاملية تهدف الى تحقيق التفاهم الانسانى ونقل الخبرة البشرية . بينما تقوم الوظيفة الهامشية بتصوير رؤية الأديب أو الفنان للخبرة البشرية والسلوك الانسانى فى شكل فنى .

---

(١) د. شكرى محمد عياد : القصة المصرية والمجتمع المصرى فى نصف قرن « محاضرات الموسم الثقافى لجامعة القاهرة فرع الخرطوم ١٩٥٧ وجمعت فى كتابه « الأدب فى عالم متغير » (القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر) .

(٢) انظر : لويس ، أ . م فى اللغة فى المجتمع ترجمة د. تمام حسان ، (القاهرة ، دار احياء الكتب العربية ، ١٩٥٩) ص ٣١ .